

العاطفة الصادقة في قلب الزهراء (عليها السلام)



نشأت فاطمة الزهراء (عليها السلام) في بيت النبوة ومهبط الرسالة، فكان أبوها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلّمها العلوم الإلهية ويفيّن عليها من معارفه الربانية. وشاءت حكمة الله تعالى أن تعاني هذه الابنة الطاهرة ما كان يعانيه أبوها من أذى المشركين فيما كان يدعوهم إلى عبادة الإله الواحد. في الخامسة من عمرها فقدت أمّها السيدة خديجة (رضي الله عنها)، فكانت تلوذ بأبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي بات سلوتها الوحيدة، فوجدت عنده كلّ ما تحتاجه من العطف والحنان والحب والاحترام. ووجد هو فيها قرّة عينه وسلامة أحزانه فكانت في حنانها عليه واهتمما بها به كالأم الحنون حتى قال عنها: «فاطمة أمّ أبيها». وكان إذا دخلت عليه وقف لها إجلالاً وقدّلها. وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «فاطمة بضعةٍ مني من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله».

أمّا عندما ندخل إلى عمق شخصيّتها من الداخل، فنرى أنّها الإنسان الذي اندمج برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اندماجاً قليلاً نظيره بين ابنته وأبيها، فقد كانت في طفولتها الأولى تتحرّك معه عندما كان يذهب إلى المسجد ليصلّي، وهي في سن يقول بعض المؤرخين إنّها الخامسة، وبعدهم إذا زادت السن كثيراً يصلّ بها إلى العاشرة. كانت تراقب أباها وهو في المسجد، وتراقب الناس من حوله من المشركين وهو يتربّصون به السوء، ونظرت ذات يوم، فإذا بهم يلقون (سلل جزور) - أمعاء الإبل - على ظهره، فبادرت وهي تبكي، ورفعته عن ظهره. وقد رأها تبكي ذات يوم، وقال لها: «ما يبكيك يا بنّيّتي؟»، فقالت (عليها السلام): «إنّها أحسّت أنّ هؤلاء القوم من أبي جهل وغيره، يتآمرون عليه ليقتلوه»، وعبدّرت عن ذلك له، فطمأنها، وكانت تتعلّم منه، وكانت تعطيه من عاطفتها كلّ ما في روحها من سرّ العاطفة.

إنّ علاقة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بفاطمة الزهراء (عليها السلام) امتدّت إلى المدينة عندما هاجرت ملتحقةً به، وبدأت تعيش معه المسؤوليات التي تحملها في حربه وسلمه ودعوته، وكان بيتهما بيته، وإذا قدم من سفر، كان بيتهما هو أول بيت يقصده ويرتاح إليه قبل أن يذهب إلى بيته الخاصّ، وعندما يخرج إلى سفر، كان بيتهما آخر بيت ينطلق منه إلى سفره. وكانت تتحسّس كلّ ما يحده

وكلَّ ما يثقله، وكان يحتضنها بروحه وعاطفته وقلبه. وكان يعرف سرَّها من خلال ما تحمله من عمق الروحانية، وكان يراها وهي ابنته وتلميذته، كيف تجلس مبتلةً إلى الله سبحانه وتعالى في جوف الليل، وكان يراقب حركتها في حديثها كلَّه، فكان يراها الأصدق بين المسلمين، وقد شهدت بذلك زوجة أبيها عائشة، فقالت: «ما رأيت أحداً كان أصدق لهجةً منها، إِلَّا أن يكون الذي ولدها». وقد تعلَّمت ذلك من أبيها، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصدق، وكان الصادق الأمين، وكانت الصادقة الأصدق، ومن الطبيعي أنَّها كانت الأمينة بكلِّ ما للأمانة من معنى.

وكانت تعيش مع رسول الله فكره، وبذلك رأينا أنَّ فاطمة الزهراء (عليها السلام) التي لم تدخل إلا مدرسة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولم تتعلَّم إلا في بيته، كانت تملك من الثقافة ما لم تجده في التراث الذي وصلنا من المسلمين في تلك المرحلة. رُويَ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً ذات يوم، وعنه الإمام عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي تعلمْتُ هؤلاء أهل بيتي وأكرم الناس علىَّ؛ فأحببْ مَنْ أحببْهم وأبغضْ مَنْ أبغضْهم، ووالله مَنْ والاهم وعاد مَنْ عاداهم، وأعْنَمْ مَنْ أعا نهم، واجعلهم مُطهَّرين من كلِّ رجس، معصومين من كلِّ ذنب، وأيَّدْهم بروح القدس منك».